الإنسان بين الغربة والمطاردة

بقلم محمد محمود عبد الرازق

حينما كانت الاحذية النازية تدنس ارض فرنسا ، وبيتان العجوز يقف على راس حكومة فيشي الخائنة ، والفتيات الصغيرات يبعن أعراضهن مقابل كسرة من الخبز او شريحة من الزبد او قطعة من السكر، نشر البير كامو قصة « الغريب » . ونحن لا يهمنا هنا مسيرة «ميرسول» الكاملة : هذه الروح الرقيقة الخجولة المجاملة ، التي أرهقها الملل ، واضناها الضياع ، واضاعها العبث ، رغم محاولاتها المتعددة لاقتناص اللحظات السعيدة العابرة . ما يهمنا هنا ـ على وجه الخصوص ـ هو سيطرة المؤسسات التي ابتدعها الانسان لحمايته على مقدراته حتى غدت سجنه لا بيته . الهوة العميقة الرهيبة التي تفصل بين الضحية المطالبة باثبات براءتها ، وجزارها الذي يرتدي مسوح الرهبان ويمسك الميزان.

لقد ارتكب ميرسول جريمة قتل ... هذا حق .

وعقوبة جريمة القتل في قانون هذه المؤسسات التي افترضت علم الكافة به ، واتفاقهم على قبوله والرضوخ له ، هي الاعدام ... هذا حق آخر .

اما الذي ليس بحق فالمسافة الشاسعة التي تفصل بين انسان ارتكب فعلا تواضعنا على تجريمه ،وفهم مصدري الاحكام لظروفوبواعث ارتكاب الجرم .

الذي ليس بحق ان تتكاتف نظم هذه المؤسسات وتتفق على ادانتك لغير اسباب ارتكاب الجرم كذكائك او الحادك او مصاحبتك لقواد . وتصويرها لكل هذه الامور بالصورة التي يمنطقها لها شكها المفترض فيك ، وبعدها النائي عنك . أن تتوقف حياتك على بلاغة المدعي العام او اخفاق ممثل الدفاع عن اللحاق بقافلة منتجي الاحكام . ان تتحول قضيتك الخاصة في ايدي قضاتك الى مادة تبحث بعيدا عنك ، عليهم الانتهاء منها على وجه السرعة ليتفرغوا الى ما هو أهم . ان تتدخل في عدالة الانسان مهما حسنت نيته عوامل جوية وصحية ونفسية واجتماعية تملي عليه الحكم .

ان الباعث الحقيقي لارتكاب ميرسول لجريمته هو اصابته بضربة شمس : كانت اشعة الشمس تسقط في اتجاه رأسي على الرمال فتمدها ببريق لا يكاد يحتمل تتصاعد منه حرارة تحيل التنفس الى امر مجهد للغاية ، والبحر يلهث بامواجه الصغيرة في انفاس مكتومة .نصف نائم كان يسير ، والرمل يبدو لعينيه كمرجل احمر يغلي ، والحرارة تتكىء عليه لاعتراض طريقه الى المنبع الظليل . عند وصوله اليه فوجىء بالشاب الذي جرح صديقه بمديته منذ لحظات . ربما بسبب الظلال كان يبدو وجه الشاب كما لو كان يضحك . انتقل لهيب الشمس الى وجنتي ميرسول وتجمعت قطرات العرق عند اهداب عينيه . سحب الشاب مديته من غير ان ينهض ولوح بها في الشمس . انفجر الضوء على الصلب الذي بدا كسلاح طويل براق خيل له انه اصابه فيجبهته. سال العرق دفعة واحدة على جفونه وغطاها بستار دافىء كثيف . فقدت عيناه الرؤيا خلف ستار من الملح والدموع . لم يعد يحس الا بدقات الشمس على جبهته وبالسيف البازغ من السكين المسلط امام وجهه . كان هذا السيف الحارق يأكل اهدابه ويفقأ عينيه وكل شيء امامه يترنح . نفث البحر كتلة الهواء سميكة وحارة . بدا كما لو كانت السماء قد فتحت بكل طولها وعرضها لتمطر لهبا يؤثر على كيانه كله . تقلصت يده على المسدس واستجاب الزناد للضغط وبدات المأساة . فهم أنه دمر توازن اليوم والسكون الرائع للبلاج الذي كان سعيدا به .

هل يصدق قضاته هذا السبب ؟!.. القاعة كلها تضج بالضحك . ويقضي القضاة باعدامه لانه وضع أمه في ملجأ عجزة ، ولم يبك يوم وفاتها ، وذهب غداة ذلك اليوم الى البلاج ، وبدأ علاقة غير مشروعة مع فتاة اصطحبها لمشاهدة فيلم هزلي لفرناندیل ، وأنشأ علاقة اخرى مع قواد . وذلك بعد ان البسوا هذه الوقائع أردية ليست لها ، حاكها المدعي العام ذو الخيال الخصب بتصوره الخاص .

اذا ما انتقلنا الى قصة « القضية » لزهير الشايب فسوف نواجه بميرسول آخر ذي ملامح مصرية خالصة يدعى « يوسف » . ويذكرنا هذا الاسم بادعاء امرأة العزيز الذي اودع يوسف بسببه السجن ، لكن يوسف النبي وجد من ينبه قضاته الى قد القميص ، والفرق بين قده من دبر وقده من قبل . اما نبي هذا العصر الذي يحاكم دوما عن جرائم لم يرتكبها فلا عاصم له . وكلما حاول بكل طاقات البراءة فيه ايضاح الحقيقة انكرها قضاته لان في انكارها قضاء لمصالحهم . ان المحرك الاول لهم هو المصلحة الشخصية . وهذا ما يجعلهم يتهمون الابرياء ، وهم يعتقدون انهم قد وضعوا ايديهم على عتاة المجرمين . ان السلطة هنا تبحث عن عصابة تزييف النقود . وهي في سعيها تزج بعديد الابرياء في السجون ،وتجبرهم تحت وطأة الارهاب والتعذيب الجسماني والنفسي على الاعتراف بجريمة لم يقترفوها . كل هذا لا للبحث عن الحقيقة ، وانما ـ كما تقول القصة ـ سعيا وراء المكافاة الكبيرة والترقية التي أسالت لعاب كل من اشتركوا في المطاردة من المخبرين الى الضباط . هذا هو العامل النفسي الذي يحركهم جميعا

وان اعتقد بعضهم انه يبحث عن الحقيقة . والحقيقة ـ من جهة اخرى ـ لا تعنيهم كثيرا ، فانهم ان يتقنوا المؤامرة حتى تبدو كالحقيقة فيصدقها الناس .

ان دليل الاتهام الاول في نظر هؤلاء القضاة هو انه أصر على اعطاء الجنيه الذي اكتشف زيفه فيما بعد للكمساري وادعائه بعدم وجود غيره معه رغم انه يحمل قطعة من ذات العشرة قروش . ويبرر يوسف هذا المسلك باحتفاظه بها كتذكار « لان عليها شعار مناسبة وطنية » . وكما كان ميرسول يشعر بما في موقفه من سخرية حينما سألته المحكمة عن سبب ارتكاب الجريمة فخلط الكلمات قليلا وهو يقول « ان هذا كان بسبب الشمس » . فان يوسف قد « شعر بسخف الرد ، ولكن لم يجد منه مناصا » (ص ١٤٧) . انه الحقيقة .. غير ان الحقيقة ليست دائما وسيلة الاقناع بطهارة الذيل ، وكما ضحكت الفاعة من ميرسول ، فان الصول المحقق قابل يوسف بسخرية لاذعة : « ماذا تقول يا اخ ؟ » (ص ١٤٧) . فهل يتخلى بنو العصر الحديث عن الصدق؟.. انيوسف وميرسول لم يتحليا عنه حتى في أحلك المواقف .. حتى في تلك اللحظات التي يكون الكذب او التامين على كذب الآخرين فيها او جهلهم ، هو طوق النجاة الوحيد . فعندما ضاق المدعي العام بميرسول فتح درجا في دولاب السجلات ، وأخرج منه صليبا من الفضة عليه صورة المسيح ، واخذ يلوح به تجاهه وهو يصيح : هل تعرف هذا ؟ وعندما اجابه بالنفي استبد الغضب بالمدعي العام وفاخر بأن ايمانه بالله لا يتزعزع وانه لو كان يشك في ذلك لاصبحت حياته بلا معنى ، ثم قال لميرسول متعجبا : هل تريد ان تصبح حياتي بلا معنى ؟!.. وكان من رأي ميرسول أن هذا شيء لا يهمه ، فما كان من المحقق الا انوضع الصليب تحت عينيه وهو يصيح بطريقة غير معقولة : اما انا فمسيحي. واني لاطلب من هذا ان يغفر لك خطاياك . لماذا لا تستطيع ان تؤمن بانه تعذب من اجلك ؟ وكعادة ميرسول حينما يريد التخلص من شخص يجد صعوبة في الاصغاء اليه ، نظاهر بانه يوافقه على ما يقول . لكن المحقق لدهشته اعلن انتصاره : أرأيت ؟.. أرأيت ؟.. الا يعني هذا انك تؤمن به وانك ستفوض امرك اليه ؟ لكن ميرسول قال له : كلا .. مرة اخرى .. فتهاوى فوق مقعده .

ولقد وضع يوسف في موقف مشابه ، ولكن بطريقة مصرية ، فالصول المحقق يستعمل اللكمات والصفعات لانتزاع الاعتراف . وعندما ينبهه يوسف الى هذه المعاملة السيئة يعاود الهجوم عليه وهو يزعق : « سيئة ؟ كنت تظن نفسك ذاهبا للسينما ... الاقسام كلها هكذا (وعاد الى مكتبه بينما صوته يعلو مؤكدا) في السند . في الهند كلها هكذا . غاغارين عندما ذهب الى القمر وجد الاقسام هناك .. هكذا .. وهنا اندفع يوسف يقول بعناد :

ـ غاغارين لم يذهب الى القمر . دار فقط حول الارض .

ـ يعني انا كذاب ؟

وهب واقفا من جديد ، وخطا نحوه خطوات غاضبة :

ـ غاغارين ذهب الى القمر . ذهب يا ولد . ذهب .

ـ لم يذهب .

ـ ذهب .

ـ لم يذهب .

ـ قلت لك ذهب . تكذبني ؟..

وانهال فوقه ضربا ، ووجد المخبر عبد العليم الذي كان يحاول تهدئة الصول ويحول بينه وبين يوسف ان المتهم « لطول لسانه » لا يستحق سوى الادب . وظل الصول يكرر مع كل ضربة :

ـ ذهب . ذهب . ذهب . قل ذهب يا ابن الـ ... حتى سقط يوسف فاقد الوعي (ص ١٥٠ وما بعدها) .

واذا كان الصدق هو أهم جوانب الاتفاق بين ميرسول ويوسف ، فان الاختلاف الجوهري بينهما يتمثل في كفر ميرسول وايمان يوسف بهذه المؤسسات . لقد احس ميرسول منذ البداية بأن قضيته لا تعني أحدا ، وبدا له كل شيء يحدث كما لو كان لعبا ، حتى ان احد الحراس سأله عن شعوره فأجابه « بان مشاهدة قضية شيء ممتع على كل حال » . وبعد صدور الحكم وعلمه بان نتائجه قد أصبحت مؤكدة تجسم له عدم تناسب مضحك بين هذا الحكم وبين الاجراءات التي اتبعت منذ لحظة القبض به . فكون الحكم علي ـ مثلا ـ في الساعة الثامنة مساء بدلا من الخامسة . أو انه كان من المحتمل أن يكون شيئا آخر ، وان الذين اصدروه رجال يمكن أن يغيروا افكارهم كما يغيرون ملابسهم ، وانه صدر باسم فكرة غير واضحة كالشعب الفرنسي أو الالماني أو الصيني . كل هذا أزال عن القرار في نظره كثيرا من جديته . وقد صفع القسيس الذي زاره في زنزانته قبل تنفيذ الحكم بالحقيقة كلها : « قلت له انه ليس ابي ، وانه يقف مع الآخرين ضدي » ... انه واحد منهم ، من هؤلاء الذين نعرهم المؤسسات بالميزات ليدوروا في عجلتها ويحرصوا على استمرارها ، وان الدائرة ستدور عليه فيدان مثله حين تتخلى عنه هذه المؤسسات بعد استهلاكها له .

اما يوسف فانه يتمتع بعذوبة الانتماء ، فيتعاطف مع الاماني القومية ويخضع للقانون وان قبل تمسكه به بالسخرية سواء من الناس او من السلطة ، فعندما قبضت عليه اليد الخشنة للمخبر عبد العليم الذي دس اليد الاخرى لجسمه العملاق في جيبه ، شعر بانتهاك حرمته وانبعث الغضب من اعماقه محتميا بمبدأ بطلان التفتيش « التفتيش غير «قانوني» هل معك اذن من النيابة ؟ » . هنا ضجت العربة كلها بالضحك (ص ١٤٢) . وحينما ضربه الصول وذكره بأن الضرب ممنوع تهكم الصول ساخرا : « ومن الذي منعه ؟ » . وعندما اخبره بان المانع هو « القانون » تجسد غيظه في لكمة قوية مزودة بوابل من السباب معلنا انكاره لذلك القانون « القانون » . الذي وضع القانون جالس على مكتبه . لم يأت هنا . لا يعرف الاشكال التي نتعامل معها » . ثم يشتد هياجه فيعلن طبقية القانون وان احتمى بالاخلاق « القانون لم يوضع لامثالكم . لا يعرفكم . القانونللشرفاء . لضحاياكم » (ص ١٤٩) . لكن يوسف يزداد عنادا وينشبث بقاعدة من أهم القواعد التي جادت بها الثورة الفرنسية على الانسان : « المتهم بريء الى ان تثبت ادانته » . فتزداد سخرية الصول : « اشكنا اذن » . ويقول المتشبث بالقانون انه سيذكر للنيابة مسألة ضربه ، فيشعر الصول بالاهانة ويمسك رقبته بكلتا يديه حتى يحول عبد العليم بينهما : « تقتله في غضبك . يحسبونه علينا واحدا ككل الناس » (ص ١٤٩) .

من هذا الاختلاف بين ميرسول ويوسف يتضح لنا الفرق بين « الغريب » و « المطارد » : الغريب كما صوره ألبير كامو تجسيد لفلسفته التي التقطها كثير من الكتاب والمفكرين في مختلف انحاء العالم مبدعينومقلدين، وبنوا عليها عوالمهم الخاصة الاصلية او المنقولة. والمطارد كما صوره زهير الشايب فكر وفن في اصالة بعيدة عن التبعية، ومعاناة بعيدة عن الزيف بمجموعته القصصية الاولى . فالغريب هو ذلك الانسان الذي يحس بأن بيئته التي خلفها لم تعد بيته بل سجنه . اما المطارد فانه ذلك الانسان الذي لا يتخاصم مع البيئة لكنها تطارده بكل تسلطها وسطوتها . والمؤسسات الاجتماعية والسياسية تشترك مع المطاردين (بكسر الراء) المتطوعين ـ ان صح التعبير ـ في جرم المطاردة ، وعندما يقع الصيد في شباكها فانها تنكر عليه حتى انتماءه ، بل انها تحاول ان تجرده منه ليحل لها التنكيل به . وفي ذلك تفسير لاستنكار الصول احتفاظ يوسف بشعار مناسبة وطنية ، بل وانكار ايمانه بالله « والله العظيم ، والله العظيم . تقسم انت ايضا بالله ؟ تعرفه ؟ تعرفونه يا اولاد الكلاب ؟ تعرفونه يا مجرمون ؟ » (ص ١٤٨) . وهذه المؤسسات لا تحترم حتى قوانينها ، فهي قد وضعتها لحمايتها وليس لاقرار العدالة . لايجاد مبرر وجودها وتعلة للمحافظة على مصالحها ، لا للمحافظة على حرية الانسان واستتباب امنه ، او كأنما وضعتها لتتمتع ـ في شذوذ مبالغ فيه ـ بخرقها .

اذا ما وعينا هذا الفارق بين الغريب والمطارد وعدنا الى المقارنة بين ميرسول ويوسف ونحن مزودون بهذا الزاد فسوف نصطدم

بالنتيجة الواحدة المنبئة بأن الانسحاق والضياع هو قدر الانسان سواء كان على وعي بعبثية الحياة كميرسول ، او غفل عن عبثيتها كيوسف . ونظرة الى أدلة ادانة يوسف تؤكد هذه النتيجة . فيوسف هو المجرم في نظر السلطة والناس : لانه خاف عندما تحدث المحصل عن الذهاب الى القسم ، ولانه أصر على اعطاء الكمساري الجنيه وادعى عدم وجود فكة معه ، رغم حمله للقطعة الفضية . ولانه حاول القاء الجنيه من النافذة حينما كشف له المحصل زيفه ، ولانه حاول النزول في منتصف الخط رغم ان تذكرته كانت لنهايته .

ان الفنان الذي يحمل العالم بين جنبيه يشارك مشاركة فعالة في الحركة الشاملة للكون وتاريخه . وهذه المشاركة ـ كما يقول روجيه غارودي ـ تعني في آن واحد ان يكون مرآة للكون ومساهما في حركته . ولقد استطاع زهير الشايب في مجموعته الاولى « المطاردون » ان يقرأ القانون الاساسي لعصره ، وان يقدم اجابات كاشفة على قضايا الانسان التي يطرحها العصر على الانسان ، وذلك حينما اوقع ابطاله الابرياء في شراك المطاردين الشرسة ببيئة مغايرة لبيئتهم : بيئة يتطلع كل منهم اليها من وراء الغيب كتطلعه الى الجنة المفقودة التي غرسها الرب الاله لعباده ذات يوم في شرق عدن ، والتي تحولت حياته كلها منذ اخراجه منها الى لحظة انتظار لاجلها ، حتى اذا ما دخلها طاردته وسجنته وأهدرت آدميته بالتعذيب الجسماني والنفسي . بل وسفحت دمه مع انعدام المبرر على قارعة طريق اجرد . ولقد بدأ زهير مسيرته بوضع يده على لحظة خصبة نابضة بالحياة ، هي اللحظة التي تطأ فيها قدم الغروي القاهرة لاول مرة ، كما في قصص : « الغريب » و « المطاردون » و « القضية » . وهي لحظة ـ كما نرى ـ حاسمة وحرجة هداه اليها حسه الفني ليظل يحلب ضرعها المدرار بحساسية مرهفة وعين يقظة تتعقب المرئيات بصبر جميل حتى يمتلىء الوعاء ... وعاؤنا .

ومدينته ليست مدينة صغيرة متاخمة للريف ، وليست عاصمة من عواصمه المتمثلة في مراكز الاقاليم مهما كبرت . انها العاصمة دائما كرمز لاقصى ما امكن للحضارة ان تعطي . وهو ينتزع انسانه من حضن الطبيعة الى قمة الحضارة ليعمق احساسه بالغربة . وانسانه لا ينظر الى الحضارة بغضب وانما بانبهار . لا يعيش العبث واللاجدوى ... وانما البراءة والطهارة . لكن الاحداث التي تطحنه في ضراوة تعلن انه كان وسيظل مطاردا ابدا .. متربصا به دائما ، لا يكاد يفلت من حبائل الاخرين الا ليقع فيها من جديد ، وكأنها صخرة سيزيف الذي فرض عليه ان يحملها على ظهره ، لكن الفرق بينه وبين سيزيف هو ان سيزيف كان على دراية تامة بحكم الآلهة ، اما هو فلا يعي مأساته ، فيظل متشبثا بارضها ، مؤمنا بمؤسساتها وما تسنه من تشاريع ، متعاطفا مع امانيها القومية ومعتزا بأيامها الوطنية .

وتتيم هذا الانسان بالمدينة ، لا يمنعه من الحذر منها ، ذلك الحذر الساذج الذي عرف عن اهل قرانا . فهو لا يتمكن من دخولها الا بعد ان تكون الفكرة الشائعة عنها .. عن ساكنيها وأخلاقياتهم قد نضجت في ذهنه . وهي فكرة ـ كما نعلم ـ ليست في صالحها ، تغذيها مسامرات القرية عما شاهدوه هم او ذووهم من احداث تقف وقفة طويلة عند النصابين والنشالين الذين يسرقون الكحل من العين .. وعند النساء الداعرات ومغامرات الغرام السهل .. وعند أهلها الذين لا يعرفون بعضهم البعض ، ولا يردون السلام الا عند وجود المصلحة . واذا كان لصوصها من عوامل الترهيب ، فان نساءها من عوامل الترغيب . ولقد أعد ابطال المجموعة العدة لكل شيء كي لا يغبنوا او يخدعوا ورأس العدة مخافة الناس والبعد عنهم .

فبطل « الغريب » لا يركب الاوتوبيس الا بعد ركوب الجميع . ويختار من الاماكن اكثرها بعدا عن الزحمة ، واذا وقف بالعربة فانه يحكم اقفال سترته ، ويمسك بيده حديد المقاعد خشية اختلال توازنه من جهة ، وحماية لجيوبه من جهة اخرى . بل انه يتحاشى سؤال الناس عن الجهة التي يقصدها حتى لا يعرفوا انه غريب فيقع ضحية النصابين . ولقد وجد في هؤلاء اللصوص مبررا يداوي به اخفاقه ، فعندما يفتقد في نفسه الجراة ـ كاهل القاهرة ـ عن ملاحقة الفتيات ، او عندما يتدخل سبب خارجي يوقف الملاحقة ، يقنع نفسه بان الفتاة الجميلة الانيقة التي بهرته ليست سوى « نشالة تغري الناس بمظهرها » (ص ٥) . وعندما يشعر بالتضاؤل بجوار اهل المدينة لان ملابسه التي لا تجاريها ملابس اهل القرية تبدو بالمدينة خشنة قديمة ، وحذاؤه الجديد اللامع يفقد بريقه ، يحاول تخطي الشعور بالدونية بالاقناع الوهمي بان اللص واحد منهم فتتهاوى بذلك اصنامهم .

لكن المدينة تصر على تذكرته بغربته مع كل خطوة يخطها ، او تصرف يصدر عنه ، فالبيع في المحلات له نظام لا يعيه ، وحتى السير في الطرقات . واهل المدينة لا يتركونه وشأنه ، بل يصرون ـ من باب التندر غالبا ـ على تذكرته بقريته فيتفاقم احساسه بالغربة ويزداد تمسكا بالقرية واخلاقها كما في قصة « القضية » كوسيلة للتحدي ، لكنه لا يفقد حبه للمدينة ، ويحاول ابهاج نفسه بمغرياتها . وأشهى مغرياتها نساؤها . فليسر وراءهن ، ولتحدد خطواتهن موقع خطواته . يقول سارتر في احدى ملاحظاته : « ان المتسكع يجد منظر الشارع محببا لان المارة المنهمكين ، المنغلقين على همومهم ، المركزين افكارهم على اعمالهم لا يعيرونه ادنى اهتمام ، لكن يكفي ان يرفع احد هؤلاء المارة رأسه على حين غرة حتى يصبح المراقب مراقبا ، والمطارد مطاردا » . ولقد فكر « الغريب » في أمر هذه المطاردة لكن المدينة لقنته على التو أهم مبادئها : اللامبالاة . فلا أحد يعرفه هنا . لكن لامبالاته التي شجبت ملاحظة سارتر لم تحمه من الاكتئاب : « لا أحد يعرفه هنا ، لذا فلا حظ له في هذا الميدان » (ص ١٢) . والمدينة لا تتركه لاكتئابه ولامبالاته . انها « نداهة » العصر . وهي ككل « نداهة » لا تترك ضحيتها الا بعد ان تغرقه في بحرها .. تذيبه كلية في هذا البحر حتى يتحول الى قطرة تدخل في تكوينه لكن تبخرها لا ينقص ماءه . ذرة من تراب .. حبة رمل مهملة في صحراء شاسعة .. رقم من ملايين الارقام التي تضمها دفاتر مكاتب السجلات المدنية ، لذلك فان المدينة لم تسلبه نقوده ، وانما سلبته بطاقته الشخصية لتريه انه ليس الا رقما ان ضاع ضاع « وليست هي التي ضاعت .. ولكن انا .. » (ص ٢٤) وها هو الشاويش يقول له : « هات بطاقة مكتوب فيها انك ملك لقوم تقول لك يا مولانا المعظم » (ص ٢٠) . لقد كان يسخر من الذين طالبوه باستخراج بطاقة « ما معنى ان يحرر ورقة يكتب فيها اسمه ومهنته وموطن ميلاده .. ثم يلصق صورة له .. ليعرفه الناس .. ومن من الناس هناك لا يعرفه ؟.. » (ص ٢٣) . وها هو يواجه بمن يشككه في اسمه .. في نفسه « تلك اول مرة يجد فيها اسمه منفصلا عن ذاته .. عن وجوده ، وعلى الرغم من ان هذا السؤال لم يوجه له من قبل ، ولم يواجه به هو نفسه ، الا انه كان يدرك كأمر لا يقبل الجدل او النقاش ، ان اسمه جزء منه . من مكوناته . بل ان اسمه هو وجوده . فمن يشك اذن في وجوده ؟ كان يهيأ له ان اسمه مرسوم على كل ملامحه . على كل اعضائه . كان يخيل له ان اظافره وشعر رأسه وأصابع اطرافه ، وملامح وجهه ، بل وملابسه وعمله .. تنطق جميعها باسمه فعرفه الناس دون سؤال .. » (ص ٢٢) .

رغم هذا الدرس القاسي الذي تلقاه صاحبنا الريفي في اول زيارة له للمدينة ، فقد استجاب لنداءاتها مرة اخرى وعاد اليها في قصة « المطاردون » وقد عقد العزم على الاستقرار فيها . لقد جاء اليها هذه المرة وفي جيبه توصية بتشغيله موجهة لاحد بكواتها من والده الذي يعيش بالقرية . الا انه لا يتمكن من توصيل التوصية لان بواب العمارة يشك في امره فيجري أعوانه خلفه وهم يصيحون : حرامي .. حرامي .. وتتبعهم المدينة كلها حتى يسقط على الارض مقضيا عليه او يكاد . ومع ذلك فانه يستجيب لنداءاتها مرة اخرى ويعود اليها

في قصة « الغصبة » اما بشخصه ان لم يكن قضي عليه نهائيا ، واما بتشبيهه أو قرينه ، وقد حصل بالفعل على عمل بها ، ولهذا فانه يحاول تجنب المشاكل وهو لا يزال في فترة الاختبار ـ رغم تندر زملائه عليه . هذا التندر الذي يزيده تشبثا بجذوره واصرارا ـ في نفس الوقت ـ على المحافظة على الوظيفة . وإذا جاز لنا ان نتتبع تطور البطل بعد « الغصبة » فاننا نكاد نجزم بانه سوف يتحول من حالة « المطارد » الى حالة « الغريب » اذا ما استطاع ان ينفذ الى ما وراء الاحداث الطاحنة ، ويضع يده على البذور الفاسدة التي كشفها البير كامو .

اذا كان هذا هو شأن صاحبنا بالمدينة ، فماذا كان شأنه بالقرية ؟.. ان الاجابة تحتم علينا العودة الى القرية ، ولقد منحنا المؤلف هذه الفرصة العملية حين ضم لهذه المجموعة قصة « الزيارة » (١٩٦٥). انها احدى القصص التي تعبر بصدق وشفافية عن حقيقة الوضع في الريف . وبطل هذه القصة هو الخفير مجاهد عبد السميع راضي . ولقد حمل المؤلف اسمه بصفاته ، فهو مجاهد حقيقي سواء بالمعنى الواسع العام للمجاهدة في الحياة ، او بحكم اخلاصه في عمله وتفانيه في تتبع اللصوص والقتلة ، وهو مطيع لا يني عن تنفيذ أوامر رؤسائه وعلى المحافظ على واجبات الوظيفة حتى من الناحية المظهرية . وهو راض ، اذا تمرد مرة على واقعه فانه لا يملك غير الحلم سواء حلم هو أو آمن بأحلام الآخرين « زوجته هي الاخرى بنت حلال منامها لا يخيب. رأت المنام نفسه ثلاث ليال متتالية . وسط دارهم مليء بكيزان الذرة الخضراء . كتاكيت لا حصر لها تملأ البيت . اللون الاخضر في المنام خير ، والكتاكيت بركة لا حد لها » . واليوم تجيء فرصته لتحقيق حلمه ، فالمحافظ سوف يمر بالقرية ، ولقد خرجت القرية كلها لمشاهدة هذا المرور العابر ، وأوكل حفظ النظام بجزء من الطريق اليه . ليست المشاهدة هي همّ مجاهد ، بل ولم يكن حفظ النظام هو همه الاول ، ان تحقيق حلمه هو ما تصبو اليه نفسه ، ولهذا فقد اصلح من حال حذائه ، وكوى جلبابه ، ولمع بندقيته ونحاسة ليدته ، ووقف وقفة انتباه لا يتقنها غيره من الخفراء ، وسوف يشاهد المحافظ هذا كله ، وسوف يلحظ حفظ النظام بمنطقته فيتحقق حلمه . لكن مرور المحافظ كان خاطفا حتى ان مجاهد نفسه لم يره ، مرت ست عربات قيل انه كان باحداها .

لقد كان المحافظ في نظره هو القدرة العادلة التي يسعى طول عمره للوصول اليها لتحقيق حلمه . واذا نظرنا الى آماله التي يحلم بها فسنجدها لا تعدو الاحتياجات الضرورية : ان يعالج ابنه المريض ، وان يزداد مرتبه جنيها . بل انه حتى في حالة نموّ الحلم التلقائي الذي يصل به الى ذروة الخيال ، نلحظ ان هذه الذروة ذاتها ضرورية وان كانت مكافأة كبيرة في نظره ... عشرة او خمسة عشر جنيها . الا ان الاحلام لا تحد ، وها هو يصل باحلامه الى مرحلة الترف فيحلم بصورة مع المحافظ تنشر بالجرائد فيعرفه الناس بالقاهرة . اذا ما استثنينا هذا الترف فاننا سنجد ان مجاهد لا يطلب غير حقه ، غير مقابل جهده واخلاصه . لكن القوة غير المنظورة الممثلة في المحافظ لا تعي به ولا تضعه في حسبانها كما يتصور ، ويتصور غيره من المقهورين الذين يحلمون ببثها شكاياهم واحلامهم . وليست هذه القوة وحدها هي التي تغمط مجاهد حقه ، فالاطفال يسخرون منه ، والاهالي يتندرون عليه ، حتى صديقه « الشحات » الذي لولاه لسرقت بقراته . ونحسب ان ما يغريهم بالتندر عليه هو اخلاصه لعمله والشعور باهميته في بلدة تعرف قيمة الخفير ، وان جاءت سخرية الصبية غير مبررة وسط تقريره الذي قدمه في بداية القصة عن شخصية الخفير .

رغم الخوف والشك والتحركات الضالة وسيطرة المؤسسات على مقدرات الانسان . رغم كل هذه الامور التي أجادت المجموعة تصويرها ، فان كاتبنا ما زال يؤمن بالحياة ، ويتضح ذلك من هبوب العاصفة التي تصفع وجوه المهمومين السائمين الضجرين الجالسين على المقهى في قصة « أوراق الخريف » (١٩٦٤) . انهم ينحنون لها كأعواد القمح الهشة ، حتى اذا ما حاولوا ـ بعد هدوء العاصفة ـ رفع وجوههم المنكفئة مرة اخرى للعودة الى ما كانوا عليه « لمحوا فتى وسيما تتعلق بذراعه فتاة .. كانا يتخذان في خطوات رشيقة طريقهما في الشارع ، بنفس الاتجاه الذي اتخذته العاصفة منذ قليل ... وكف الجميع عن التنفس .. فقد كانت الفتاة بالفعل جميلة .. جميلة ، حتى ليبدو وكأن العاصفة قد هبت خصيصا لتنكش لها الطريق .. » (ص ٤٠) .

ان موقف المؤلف في هذه القصة، بل وضم هذه القصة للمجموعة، يذكرنا مرة اخرى بموقف ميرسول الذي أحب الحياة رغم ايمانه بعبثيتها، وحاول اقتناص اللحظات السعيدة بشتى الطرق . انه لا ينسى هذه اللحظات ، ففي اثناء خروجه من المحكمة لركوب عربة السجن « شممت للحظة قصيرة روائح امسيات الصيف ومتعت عيني بألوانها ـ وفي ظلام سجني المتحرك تناهت الى أذني ، وانا متعب مكدود ، الاصوات المألوفة في تلك المدينة التي كنت احبها في الساعة نفسها التي كنت انعم فيها بالسرور والغبطة حينما كنت حرا طليقا . وكانت صيحات بائعي الصحف في الفضاء المتسع وشقشقة العصافير الاخيرة في الميدان ونداء باعة السندوتش ، وازيز عربات الترام في المنحنيات المرتفعة بالمدينة ، ووهج السماء قبل ان يرخي الليل سدوله على الميناء ـ كل هذا كان بمثابة علامات للطريق يمكن ان يهتدي بها الاعمى ، وكنت اعرفها جيدا قبل ان ادخل السجن . نعم .. كانت هذه هي الساعة التي كنت اشعر في خلالها ، منذ زمن اصبح يبدو لي بعيدا جدا ، بالغبطة والهناء ، وكنت حينئذ انام نوما خفيفا من غير احلام » لكنه مع كل هذا لا يغفل عن ان الدروب المألوفة المرتسمة في سماء الصيف يمكن ان تؤدي الى السجن كما تؤدي الى النوم البريء .

ان هذا الحب المشترك للحياة بين « الغريب » و « المطارد » ، يجعلنا ننظر في اعجاب مضبب بالعجب ، واكبار مغلف بالدهشة لذلك الانسان المطحون بين رحى الغربة والمطاردة .

القاهرة — محمد محمود عبد الرازق

مكتبة انطوان

(فرع شارع الامير بشير)

تقدم للطلاب

جميع الكتب المدرسية

العربية والفرنسية